

الفصل الخامس

اليهود في عقل جارودي

ما هو موقف روجيه جارودي من اليهود ؟ هل هو حقاً معاد لليهود واليهودية (معاد للسامية) كما يدعى الإعلام الغربي ؟ للإجابة على هذا السؤال لابد أن ندرس فكر جارودي في كليته .

الشوق إلى النجوم :

هناك رؤيتان للعالم : واحدة تبدأ من المادة وقوانينها الرتيبة المطردة وتذهب إلى أن الإنسان ليس إلا كائناً طبيعياً مادياً ، لا يختلف عن الكائنات الأخرى ، يسرى عليه ما يسرى عليها من قوانين طبيعية حتمية ، ولذا فليست له أهمية خاصة في الكون . أما الثانية فتبدأ من معجزة الإنسان وتذهب أن يختلف بشكل جوهري وجذري عن الكائنات الأخرى (رغم وجود بعض السمات المشتركة بينهما) ولذا فهو يشغل مركز الكون ، وبينما تؤكد الرؤية الأولى أصل الإنسان الأرضي (وتتحدث عن تطوره من الأميبا والزواحف والقوارض والقرود العليا) وعن عجزه عن تجاوز قوانين الحركة المادية ، تؤكد الرؤية الثانية أصله السماوي أو الرباني وتتحدث عن شوقه إلى النجوم

وعن مسئوليته وحرية ومقدرته على تجاوز عالمه المادى ، وصولاً إلى قبة السماء واللامتناهى .

والمفكر الفرنسى رجاء جارودى ينتمى إلى دعاة الرؤية الثانية المتمركزة حول الإنسان . فهو يتحدث فى كتابه تطور فكر ماركس عن «الحلم الفاوسى» ، أى محاولة الإنسان الوصول إلى اللامتناهى ، وعن الإنسان باعتباره كائناً مسؤولاً ، صاحب إرادة حرة ، لا يمكن فهم سلوكه إلا فى إطار شوقه إلى اللامتناهى .

إن جارودى ، منذ بداية رحلته الفكرية ، قد نصب نفسه مدافعاً عن الإنسان ضد الظلم والظيف ، وضد تلك الحركات الفكرية التى تهاجمه وتحاول إنكار حرية ، بل ونفى وجوده ، والتى تصاعدت حدتها منذ منتصف الستينيات . ففى كتابه البنيوية ، فلسفة موت الإنسان يسأل جارودى : هل يقودنا موت الإله بالضرورة إلى موت الإنسان ؟ ويمكن طرح السؤال بطريقة أخرى : هل يودى اختفاء اللامتناهى إلى اختفاء الإنسان ؟

ويقول جارودى إن الفلسفة البنيوية هى فى جوهرها إنكار للتسامى ونفى للإنسان ، فقد جعلت من الإنسان مجرد نقطة تقاطع لعلاقات تتجاوز الإنسان ، بل إن الإنسان يصبح حادثاً عرضياً فى تاريخ الكون ؛ مجرد مقولة فكرية من اختلاق فكرة نهاية القرن الثامن عشر . ويؤكد تضال الإنسان تضخم مفهوم البنية التى تصبح جوهرًا منفصلاً تمامًا عن الممارسة الإنسانية . ويظهر التاريخ الإنسانى باعتباره تاريخاً من

تلقاء نفسه بدون مبادرة إنسانية ، بل وبدون بشر . ويتسهي الأمر بالبنوية إلى أن تؤسس علومًا إنسانية تم إزاحة الإنسان منها ، إذ يزوب الإنسان تمامًا في البنى المجردة له .

انطلاقًا من هذا الموقف المعادى للإنسان ، يذهب ألتوسير - البنيوي الماركسي - إلى أن الإنسان رهن بالظروف المحيطة به ، ويؤكد أن الماركسية العلمية (كما يفهمها هو) هي مذهب غير مكترث بالإنسان معاد للإنسانية (الهيومانية) وللتاريخ . ويصل هذا العداء للإنسان إلى قمته في أعمال المفكر البنيوي ميشيل فوكو الذى يقول : «لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفى كل من لا زال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته أو تحرره» . «فالإنسان ليس أقدم المشكلات التى تم طرحها على المعرفة الإنسانية ولا أكثرها ديمومة فالإنسان اختراع يبين لنا علم آثار فكرنا ، ييسر وسهولة ، حداثة عهده وربما اقتراب نهايته . وسيضمحل الإنسان مثل نقش على رمال الشاطئ تمحوه أمواج البحر ، بدأ العالم بدون الإنسان وسيتهي بدونه ، وما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان . «وهكذا يتم تفكيك الإنسان المتعين المسئول صاحب الإرادة وصانع الحضارة ليظهر بدلاً منه «فراغ الإنسان المختفى» . وهكذا ننتقل مع فوكو من عالم الحدائث والبنوية إلى عالم ما بعد الحدائث وما بعد البنيوية والتفكيكية («بعد الحدائث» هذه التى تقيم الدنيا الآن وتشغل الناس في بلادنا العربية ، كأننا لا يشغلنا شاغل سوى تلف ما يقوله الإنسان الغربى وتكراره بموضوعية بيغائية مذهلة ، حتى حينما يبدأ في صب لعناته

على الإنسان بعد أن لهج بالثناء عليه والحد له مئات السنين . ألم يكن من الأجدى أن نسأل لم سادت البنيوية في الغرب في منتصف الستينيات ، ولمّ انحسرت وسادت ما بعد البنيوية بدلاً منها في منتصف السبعينيات ؟ .

يقف جارودي ضد هذا الهجوم الشرس على الإنسان ، ويرفض تصاعد معدلات العداء للإنسانية (الهيومانية) وللتاريخ والعقل في الفلسفة الغربية ، فيكتب كتابه واقعية بلا ضفاف ليؤكد مرة أخرى رفضه للحتميات المادية ، وليؤكد مرة أخرى العنصر اللامتناهي في الإنسان . ولذا فهو يختم كتابه باقتباس من بودلير «الشعر أكثر الأشياء واقعية ، وهو الشيء الذي لا تكتمل حقيقته إلا في العالم الآخر ، ثم يُضيف قائلاً: «إن الفن الحقيقي طريقة للتذكير بالامتناهي «لثة طموح نحو اللامتناهي داخل الإنسان يُرمز له ببرج بابل ، وطالما وجد الإنسان على الأرض فستكون هناك أيضاً تلك الرغبة المتأججة في بناء البرج» .

قبر يكفى لدفن العالم :

تتلور رؤية جارودي وتوضح معالم خطابه في كتابه في سبيل حوار الحضارات ، وهو خطاب تفكيكي من الطراز الأول ، ولكنه ليس بتقويضي ، فهو يطرح البدائل ويُشير بالمستقبل . ويبدأ الكتاب بـ «مدخل» ، ويبدأ المدخل بجمله دالة مثيرة : «الغرب عارض طارئ» (وليس الإنسان كما تزعم البنيوية وما بعد الحداثة) . ثم يستطرد قائلاً : «إن الغرب استثناء ضعيل بائس في الملحمة الإنسانية التي

دامت ثلاثة ملايين سنة ، وهي ملحمة بدأت في أفريقيا واستمرت خلال ستين قرناً في جميع القارات ، حتى عصر النهضة الغربي . تلكم هي المصادرة الأولى في كل اختراع يتناول المستقبل . فالمستقبل بالنسبة لجارودى هو مجال الحرية ، ولكن إن ظلت المركزية الغربية قائمة فإن أبواب الاجتهاد الإنسانى تُغلق ، ويصبح المستقبل ، مستقبل الجميع ، مقررًا مسبقًا ، ويصبح مجال الحرية اللامتناهى قفصًا حديدياً حتمياً ، مثل قوانين المادة ، إذ تصبح مهمة البشر ، في كل أرجاء العالم ، نقل النموذج الغربى وتطبيقه إما بحذافيره أو بقليل أو كثير من التصرف .

ولكن ما هو الغرب الذى اكتسب هذه المركزية ؟ يقول سرج لاتوش في كتابه تغريب العالم: إن الغرب لم يعد بقعة جغرافية ولا مرحلة تاريخية ، فقد أصبح آلة شرسة تدور لتهلك الجميع ، وضمن ذلك القائمين على إدارتها ، أى الإنسان الغربى نفسه . لا يختلف موقف جارودى عن ذلك كثيراً ، فالغرب جغرافياً هو «بمجرد شبه جزيرة من آسيا ، ملقاة خلف الأورال وعلى شواطئ المتوسط» ، أى إن الغرب الذى يهددنا ليس ماهية جغرافية ، وإنما «حالة فكرية» يحدد جارودى معالمها الأساسية فيما يلى :

١ - ينطلق الغرب من أن الفرد هو مركز الأشياء ومقياسها ، تحركه إرادة الربح والسيطرة والاستهلاك ، وهدف هذا الفرد هو السيطرة على الطبيعة تقنياً . ولذا فعلاقة الإنسان بالطبيعة هى علاقة فاتح براضخ . وقد طوّر هذا الفرد إرادة الغاى الذى لا يتردد فى

اقتحام تخوم العالم المعروف أو تدمير القارات والحضارات ، وظهرت
ديانة جديدة قوامها تحريض الرغبة تحريضاً دائماً .

٢ - واكب هذا الاتجاه نمو العقل المجرد أو المذهب العقلي ذى البعد
الواحد (العقل الديكارتي وعقل عصر الاستنارة) فتصور الإنسان أن
العقل قادر على حل جميع المشكلات ، وأنه لا توجد مشكلات حقيقية
إلا تلك التي يستطيع العلم أن يحلها . وأصبح هدف المعرفة هو الرقى
بالعلم والتقنيات وظهرت العلمية (أى العلموية) والتكنوقراطية وكلتاها
لا يطرح سؤال لماذا ؟ (المختص بالهدف والغاية) وإنما يطرح سؤال
كيف ؟ وحسب ، أى إنما ديانة وسائل وحسب ، ديانة أدواته بلا ضمير
ولا قلب ولا تاريخ . وظهر الإنسان ذو البعد الواحد الذى يُمجّد العمل
والفعل بشكل وحيد الجانب ، لا يجد تحقيق ذاته تحقيقاً تاماً إلا من
خلالهما (وهذا تقليد حضارى غربي شامل ، ينضوى تحته كل من
الرأسمالية والاشتراكية) . ومن ثم ظهرت النفعية والوظيفية ، أما الأفعال
غير النفعية ، تلك التى تفصح عن عفويتنا العميقة ، حركات الشعر
والإبداع الحر ، فقد تم نفيها . فى مثل هذا التصور وحيد البعد تُوجّه
طاقة الإنسان إلى العلم النفعي وإلى الاستهلاك المستمر وينحل الفكر إلى
ذكاء ، ولا يجد فيه الحب ولا الإيمان ولا الشعر مجالاً ، وتصبح التقنية
هى مقياس الأشياء كافة ، ويصبح النجاح الاقتصادي (الإنتاج
والاستهلاك) المعيار الأوحيد .

٣ - أدت هذه الحالة الفكرية إلى ظهور الفرد ذى البعد الواحد ،
الذى يأخذ شكلين متناقضين ولكنهما يشتركان فى سمة أساسية ،
واحدية البعد :

(أ) ظهر الإنسان المتأله ، الذى أصبح إرادة مطلقة والذى يحاول أن يصبح «سيد العناصر ورهما» (كما قال الكاتب المسرحى الإنجليزى كرمستوفر مارول فى مسرحيته التاريخ المأساوى للدكتور فاوستوس) والذى يحاول أن يتوصل إلى علم «يجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها» (على حد قول الفيلسوف الفرنسى ديكارت) . هذا الإنسان تسيطر عليه شهوة السلطة والتملك التى تستبعد كل الأبعاد الأخرى لشخصيته .

(ب) ظهر الإنسان العادى الذى يشبه ترمماً فى آلة تطحن الإنسان وتقضى على سماته الفردية ، إنسان منضبط تماماً ، بيروقراطى ينفذ كل ما يصدر له من أوامر (وقد رسم كافكا صورته بشكل رائع فى اعماله الروائية) . هذا الإنسان تعلم الإذعان الكامل وأصبح موضوعياً بارداً ، وعلمياً مرئياً ، واستبعد من شخصيته كل الأشواق والأحلام والرؤى والمقدرة على التحاوز .

٤ - هنا يظهر جانب آخر للرؤية الغربية يسميه جارودى «اللاهائى الكمى» ، الذى يقف على طرف النقيض من اللاهائى الكيفى» الذى يسمو بالإنسان (وهذه توطئة لمفهوم جارودى عن الأسطورة الإنسانية المنفتحة مقابل الأسطورة الفاشية المغلقة ، كما سنبين فيما بعد) .

ويتبدى اللاهائى الكمى فى نظريات التنمية التى اكتسحت العالم الشرقى والغربى ، الشمالى والجنوبى ، والتى يُشر بها البنك الدولى ، الذى لا يعرف شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً ، فالعالم بالنسبة له حيز بلا تاريخ ، مادة بلا ضمير أو روح ، مجرد بحال تتحرك فيه التقنية

ورأس المال والبضائع دون اكتراث بالأفراد ، تمامًا مثل حركة البنية في الفلسفة البنوية ومثل عالم ما بعد الحداثة التي عرّفها البعض بأنها «نسيان نشط للماضي والتاريخ».

انطلاقًا من هذا اللاهائي الكمي أصبح الإنسان الغربي يُعرّف النمو باعتباره نمواً كميًا صرفاً في الإنتاج والاستهلاك ، بصرف النظر عن أية غائية إنسانية ودون الرجوع إلى مشروع إنساني أو إلى صفة الحياة . ويصبح النجاح التكنولوجي هو المعيار الوحيد حتى لو كان نجاحاً مدمراً ، ويصبح التنظيم الاجتماعي الصارم هو وحده الهدف حتى لو أدى إلى الاضطهاد والتفاوت . وانطلاقاً من اللاهائي الكمي ظهر الإيمان بإمكانية النمو اللاهائي للعلوم والتقنيات الذي يعنى نمواً متصاعداً للسيطرة والربح والاستهلاك .

وانطلاقاً من هذا المنظور نفسه تعمل المجتمعات الغربية «كما لو أن كل ما هو ممكن تقنيًا أمرًا مرغوبًا فيه ، ضروري ، سواء أكان ذلك صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد ، أم صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد حتى ولو لم يستهدف الذهاب بها إلى أي مكان) أم إطالة الحياة ذاتها أكبر قدر يستطاع (حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع عرض علاجي مسرحي وضحيته في آن واحد)» .

وانطلاقاً من اللاهائي الكمي «تعمل المجتمعات الغربية المسمّاة «متطورة» تبع المبدأ الذي كان فيما سلف مبدأ المغالطين : خالق

حاجات ورغبات تتصف بأنها مصطنعة إلى أبعد مدى ، ومؤذية أعظم الإيذاء ، من أجل اللجوء من ثم لإنتاج وسائل إروائها» .

وفي إطار اللاهثائي الكمي يتم استبعاد أى مفهوم للتنمية الشاملة : تنمية إمكانات الإنسان الجسدية (نمو جسمه وقوته ومرونته) ، والإمكانات الفكرية - الابتكارات الإنسانية والإبداعات الأدبية) ، والإمكانات الروحية (العلاقات الأخوية وعلاقات الحب مع الآخرين) ، وإمكانات المشاركة الجمعية حيث يشارك كل امرئ مسئول في مشاريع مشتركة ، وإمكانات بلوغ مستقبل مفتوح على آفاق لا نهاية لها ، وإسهام موصول للإنسان في هذا العمل المبدع الأولى الذائب الذى به يتكشف حضور الإله في الإنسان ، أو اللامتأهى فى المتناهى . وانطلاقاً من اللاهثائي الكمي تم تصنيف الشعوب والحضارات بحسب معيار وحيد ، وهو «التاريخ القومى» بالمعنى الاقتصادى المادى المباشر . وتم إنكار جميع الثقافات الغربية وهدمها ، وكل الطرائق الأخرى التى تتناول بالفكر والحياة علاقة الإنسان بالطبيعة وبالبشر وبالإله .

وهنا يكشف جارودى الغطاء عما يسمونه «التراكم الرأسمالى» (وما أسميه «التراكم الأمريالى») : «إن شرط «نمو» الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية ، وبالمقابل فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً» إن النمو والتخلف عنصرا منظومة الرأسمالية . وتراكم رأس المال الأولى ، ثم الإنتاج الموسع تطوراً خلال مراحل عدة : إبادة هنود

أمريكا بدءاً من القرن السادس عشر لخاسنة العبيد السود التي أصبحت ضرورية لاستغلال المعادن - أراضي أمريكا التي قلّ سكانها نتيجة تلك الإبادة الجماعية - «الثورة الاقتصادية» (التي جعلها التكديس أمراً ممكناً) - «الحركة الاستعمارية» أي السيطرة السياسية والعسكرية على أفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين الاستثمارات ذات الربح الأعظم في الصناعة وفي التجارة ، وذلك بفرض السعر الأدنى على اليد العاملة ، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضاً بالقوة .

«وأخيراً ، ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة الشركات متعددة الجنسيات وتوسعها ، ومن ثم لم تبق علاقات الاستغلال ثنائية الجانب بين البلد المستعمر ومستعمرته . إن الشركات متعددة الجنسيات ، وهي غريبة عن حدود الدول في (الغرب) أو في سائر أنحاء العالم ، تُنظّم نهب العالم ، لا على الصعيد القومي كما كان الأمر ، بل على الصعيد العالمي ، سواء بالاستناد إلى قوة عظمى (الولايات المتحدة مثلاً) من أجل توجيه اقتصادها وسياستها واستخدام جهازها العسكري (كما جرى في جواتيمالا أو في فيتنام) تارة ، أو باستخدام مؤسسات دولية في سنة ١٩٧٦ م ، وهي تنهض داخلها بدور حاسم تارة أخرى».

وتظهر الموضوعات نفسها في وعود الإسلام حيث يشير جارودي مرةً أخرى في بداية كتابه إلى أن «الغرب من منظور آلاف السنين هو

أكبر مجرم في التاريخ» . ومرة أخرى نصل إلى «عصر النهضة» - هذا الاجتياح الغربي للعالم: «كل اجتياح ، كل سيطرة ، هو نكوص في تاريخ البشر» . كان المؤرخون عادةً يشيرون إليه باعتباره «غزوات البرابرة» . وكان الأمر مختلف تمامًا مع عصر النهضة إذا أصبحت الاحتياجات «اكتشافات» عظيمة . ومع ذلك فما أهمية أهرامات ٧٠,٠٠٠ من الجمالجم التي شيدها تيمورلنك بعد الاستيلاء على أصفهان إزاء الإبادة الجماعية للملايين من هنود أمريكا التي قام بها الـ «فاتحون» الأوروبيون ، المزودون بالمدافع ، وإزاء خراب أفريقيًا بإبعاد ١٠ إلى ٢٠ مليون من السود من بلادهم ، استعبادًا . وهو ما يمثل ، إذا حسبنا عشرة قتلى مقابل كل أسير ، رقمًا من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليون مسن الضحايا) ، وإزاء مذبحة آسيا ، من حرب الأفيون إلى المجاعات التي أودت بحياة ملايين الملايين الهنود بسبب تدابير الملكية وفرض الضرائب التي ألزمتها ، ومن قبلة هيروشيما إلى حرب فيتنام ؟

أى اسم يُطلق على هذا الشكل من هيمنة الغرب العلمية الذي أنفق ٤٥٠ مليار دولار في التسليح عام ١٩٨٠م والذي سبب موت ٥٠ مليونًا من الكائنات البشرية في العالم الثالث نتيجةً للعبة المقايضات غير المتساوية ؟ « .

إن فاوست رمز الحرية في الكتابات الأولى لجارودي يتحول هنا إلى «الرمز المأساوى لثقافتنا الغربية» ، فهذه الحضارة نهب العالم وهدمت الحضارات ولكنها لم تأت بالسعادة أو بالاتزان للجنس البشرى

وينطبق ذلك على الإنسان الغربي نفسه . وقد كشفت لنا هذه الحضارة أنها تؤدي إلى التفكك والموت وأنها قادرة ، خلال أربعة قرون على أن تحفر قبراً يكفى لدفن العالم ، ومن ثم أصبحت هذه الحضارة «مؤهلة للانتحار» الذي يتبدى في فقدان الهدف (الفرار إلى المخدرات - انتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغصني) ، وفي الإفراط في الوسائل (نضوب المصادر الطبيعية تلوث الطبيعة باعتبارها مستودعاً للنفايات ومعملاً لمعالجتها) .

مشروع الأمل :

المعركة في الوقت الراهن في نظر جارودي - لم تعد معركة بين الرأسمالية والاشتراكية ، (في التطبيق السوفيتي) تبنت أهداف النمو نفسها التي تبناها الغرب الرأسمالي ، ولذا أصبحت هي الأخرى ظالمة لشعبها ذاته ، مستغلة للعالم الثالث ، وشريكة في السباق نفسه إلى الهيمنة وامتلاك أسلحة الرعب . إن معركة عصرنا من ثم هي ضد الميثولوجيا الانتحارية لك «تقدم» ولك «نمو» على المنوال الغربي ، وضد الأيديولوجيا التي تتسم بالانفصال بين العلوم والتقنيات (تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة ، والحكمة (التبصر بالغايات ومعنى حياتنا) ؛ وهذه الأيديولوجيا متميزة بإشارة متطرفة لفردانية تبت الإنسان عن أبعاده الإنسانية .

ويشير جارودي إلى أن يكون هناك «نظام اقتصادي عالمي جديد ولكن لا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام بدون نظام ثقافي عالمي

جديد . وجوهر النظام الثقافي العالمي الجديد هو الانتقال من الهيمنة الغربية إلى التشاور على مستوى الكرة الأرضية لإعادة تحديد مواصفات مشروع إنسانى شامل - «مشروع الأمل» فالحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة إنه مسألة بقاء . ومهمتنا هى أن نعقد الحوار من جديد بين الحضارات الشرق والغرب لكي نضع حداً لتولوج الغرب الانتحارى .

والانتحار - فى معجم جارودى - مرتبط تمام الارتباط بالكفر، وهى كلمة لها معنى محدد عنده ، فهو يُعَرَّف الكفر باعتباره «النظر إلى الأشياء كما لو كانت مستقلة عن أصلها وغايتها ومعناها». فالكفر ، من ثم (على سبيل المثال) هو رؤية السوفسطائيين القدامى الذين نظروا إلى العالم فلم يجدوا سوى مادة تتحرك حركة لا معنى لها ، لا يمكن للإنسان أن يتحكم فيها أو أن يدركها ، وإن أدركها فليس بإمكانه إن يوصل إدراكه للآخرين ، فاللغة الإنسانية أداة غير طيبة بل معطوبة ، وإن وصل الإدراك فلا فائدة تُرجى ، إذ إن النظرية لا علاقة لها بالممارسة . فالعالم فى حالة سيولة مطلقة ، لا توجد فيه حقيقة أو حق ، إذ إن كل الأمور نسبية بشكل مطلق . عالم شرير وزمان ردىء قبض الريح وباطل الأباطيل .

والسوفسطائيون فى هذا لا يختلفون عن بعض الفلاسفة المحدثين ممن يُنكرون وجود هدف أو غاية عظمى فى الكون ، إذ لا يوجد سوى «قصص صغرى» لا يربطها ، أو بمعنى آخر لا يوجد سوى تفاصيل وعبث ، وأهداف موقته . وإذا كان الفيلسوف القديم قد أكد لنا أن

المرء لا يستطيع أن يستحم في النهر الواحد مرتين ، فإن الفيلسوف العبثي الحديث قد وضع مقدرة الإنسان على الاستحمام ذاتها موضع الشك ، أما نتيجة الاستحمام فهي ضرب من ضروب الغيب .

في مقابل هذه السيولة المعرفية والأخلاقية ، هذه النسبية المطلقة ، يضع جارودي الرؤية الإسلامية للواقع ، التي تنطلق من فكرة التوحيد والتي تعطي لكل حياة ولكل شئ معنى بالنسبة لعلاقته بالكل . وهذا التوحيد ليس توحيداً جامداً ، فالتوحيد الحقيقي هو «فعل من الله دائم الخلق ، فعل من النبي ، الذي بكلامه ، الموحى به من الله ، يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد ، فعل تجميع ، فعل لكل إنسان يعي أنه ليس ثمة إلهى وحقيقى إلا وحقيقى إلا الله وأنه في كل لحظة يربط كل شئ وكل حادث وكل عمل بعبده » .

وتتبدئى هذه الرؤية التوحيدية في فكرة أن الإسلام تسليم ، أى امتثال للإرادة الإلهية ، وأن كل الأشياء بمعنى من المعاني «موحدة» ، فمثلاً: الشجرة في ازدهارها ، الحيوان في نموه ، الحجر في جماديته . لكن هذا التسليم لا يتعلق بما ، فهي لا تملك الإفلات من القانون الذى يحكمها ، فالإنسان هو وحده القادر على «نسيان» طبيعته الحقيقية . (قال كذلك أتلك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) كما قيل له في القرآن (سورة طه ١٢٦) . فهو يصبح مسلماً إذن بالاختيار ، وذلك بتذكره الشريعة الأولى ، شريعة التوحيد التي تعطي معنى لحياته ، وهو مسئول مسؤولة تامة بما أنه يملك إمكانية الرفض .

ومن خلال التوحيد تظهر فكرة الجماعة المتماسكة المسئولة أمام الله ، والإنسان الحر المسئول المتسامي (الذي يحلم باللامتناهى). والتسامي والجماعة / الأمة هما الإسهام الذي يستطيع الإسلام اليوم أن يقدمه لخلق مستقبل ذي وجه إنساني ، في عالم الأمر الواقع الذي يستطير عليه نموذج جنوني للنمو. هذا الواقع الذي دمر الجماعة ومسود الحتمية المادية واستبعد السمو واللاتناهي فسقط في اللامتناهي الكمي وأصبح الإنسان جزءاً من بنى أكبر منه تنكّر عليه حرّيته واستقلالته ومسئوليته .

من الماركسية الغاوستية إلى التوحيد الإسلامي ، الموضوع ذاته ، والرؤية ذاتها ، والبحث الدؤب ذاته ، بحث لم يتغير عن المعنى والعدل ، فالإيمان بالبعُد اللامتناهي في الإنسان أصبح إيماناً بوجود الله خالقاً دائماً مستمراً في الكون ، إله يدعو الإنسان إلى أن يسمو وأن يتجاوز واقعه المادي .

حضور الإله :

ولكن إذا كان الإنسان واللامتناهي متلازمين ، فإن الأسطورة تصبح عنصراً أساسياً في الوجود الإنساني . يشير جارودي في واقعية بلا ضفاف إلى تعريف الأسطورة عند ماركس بوصفها وسيطاً بين البناء التحتي والبناء العلوي . وكلمة «وسيط» هنا هي بقايا المثالية الألمانية في خطابه، والتي تحاول أن توجد توازناً كاملاً بين الطبيعة والإنسان وبين الروح والمادة ، ومن ثم فهي تدخل بنا جميعاً في نهاية التاريخ والعنصرية وإدارة القوة ، أي في الطريق المسدود الذي أدخلتنا فيه

الحضارة الغربية الحديثة ، ولذا فهو يُسقط هذا التعريف ليصل إلى تعريف أكثر رحابة يؤكد اللامتناهى ، فيُعرف الواقع الإنسان بأنه لا يقتصر على ما هو قائم ، وإنما ما سيكون عليه في المستقبل . فأحلام الإنسان وأساطير الشعوب هي خميرة المستقبل . الوسيط والأساطير ، تتجاوز الواقع إلى ما وراء الواقع . ولذا فمهمة الأساطير العظيمة هي التذكير دائما باللامتناهى وإثارة الرغبة في السعى إليه .

وفي الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ينهنا جاراودي مرة أخرى لهذه الحقيقة، فأساطير الإنسان الكبرى رسمت خطوط ملحمة الإنسان ، وعبرت بفضل سردتها لبطولات الآلهة أو الأجداد الأقدمين عن اللحظات العظيمة في مسيرة هذا الإنسان ووعيه بقدراته وواجباته ورسالته في التفوق على واقعه المادى من خلال صورة ملموسة تولدت عن تجربته وآماله ، فهو دائما يصبو إلى شأن أسمى لمستقبله تحقق فيه كل أحلامه في السعادة والخلاص . الأسطورة لم تتولد عن التجربة الواقعية المادية وحسب ، وإنما عن الآمال والأحلام ، فحلّم الإنسان بالسعادة والخلاص هو ما يعطى حياته معنى وهدفا وغاية . والغايات تلعب دوراً محرّكا بقدر ما تلعب الأسباب (كما قال جاراودي في كتابه في سبيل حوار الحضارات) فليست المسألة هي سبب ونتيجة (كما تؤكد الحتمية المادية) وإنما هي سبب وهدف وإرادة إنسانية ثم نتيجة . ولأن خميرة اللامتناهى مكون أساسى في الإنسان ، فكل تاريخ مقدّس (يومي إلى اللامتناهى) هو «ضد التاريخ» (المادى الواقعى) ، وعبر أندريه مالرو عن الفكرة ذاتها حين قال: «كل أثر فنى هو ضد القدر»، أى إنه إبداع إنسانى يقف في وجه المادة وقوانين الحركة

الخصمية التي يمجدها الماديون رغم أنها تسحق الإنسان وتسعى بخطى
حثيثة نحو خلق «فراغ الإنسان المختفى» ، فهي مثل دراكيولا أو
فرانكشتين أو تلك الوحوش التي تزخر بها هذه الأيام السينما
الأمريكية «التي حوّلت رؤية فوكو المرعبة إلى تسلية، أو لسنا في عصر
ما بعد الحداثة ؛ حيث يتم تطبيع الاغتراب وتطبيع الآلم وتقبل الأمر
الواقع (البنك الدولي وصواريخ الكروز) وكأنها أمور نهائية ؟

والتاريخ المقدّس (لا التاريخ المادى الواقعى) هو التاريخ الحقيقى
لل بشرية ، أى تاريخ عظمة الإنسان وتطلعه إلى اللامتناهى . والأسطورة
هى تعبير عن هذا التاريخ المقدّس . انظر مثلاً إلى أسطورة
أوزيريس ، رمز علاقات الإنسان بالطبيعة والآلهة : «إن (أوزيريس) إله
مزقّه خصومه ، ولكنه يُبعث عندما تجتمع أخته (إيزيس) ، بدافع حبها ،
أشلاءه المبعثرة . إنه إله يُؤكّد من جديد فى كل صباح ، كالشمس ، بعد
أن يجتاز مملكة الأموات . إله يعود فى كل ربيع فيظهر مع ظهور النبات
الجديد . وهو أخيراً إله يتخذ انبعاثه قانوناً كلياً للحياة ، وللطبيعة ،
والتاريخ» .

والفن المنبعث من هذه الأسطورة هو تعبير عن الإيمان بقدرة البشر
وهى تميّط اللثام عن حضور الإله ، تماماً مثل تلك الأهرامات التي يصفها
جارودى بأنها : «قصائد حقيقة ، خيام مدهشة من الحجر الصوان ،
صور عالم بناه الإنسان» . وإذا كانت حركة المادة والتاريخ الواقعى
(الذى ينكر التسمامى واللامتناهى) تكتسح الثوابت والأخلاقيات ،
فإن الأسطورة / التاريخ المقدّس منظومات أخلاقية خالدة . ويضرب لها

جارودى مثلاً على ذلك من كتاب الموتى الذى وردت فيه هذه العبارات التى يُرددها الميت لحظة حسابه : «لم أجعل أحداً ييكى ، لم أسبب إيلام إنسان» . كما ورد وصف للإنسان الخير باعتباره قد «أعطى الجياع خبزاً ، والعطاش ماءً ، وكسا العراة» .

حساب الأرقام الجنائزى :

ولكن إلى جانب هذا الاحتفاء بالإنسان ، هناك التاريخ غير المقدس الذى كتبه المنتصرون ، ولذا فهم لا يتحرجون من استخدام الأساطير لمصلحتهم عن الاقتضاء ومن ربطها بعجلة انتصاراتهم ، أى إن الأسطورة هنا تتحول إلى إرادة فى يد الغازى لقمع أحلام الإنسان وتطلعاته . ويضرب جارودى مثلاً على هذه الأساطير القمعية : أسطورة ماراتون وأسطورة معركة بواتيه بين شارل مارتل وكتيه «فدائية عربية» ، وكلاهما ليس له أى أساس فى الواقع التاريخى ، ولكنهما خلقتا تخليقاً وأصبحتا رمزاً لانتصار الحضارة الغربية على الآخر ، فالعالم هنا ينقسم وبمجة إلى الغرب واللاغرب ، أو كما يقولون بالإنجليزية «ذا وست آند رست the west and the rest» ، والغرب هنا هو الشعب المختار وبقية العالم شعوب منبوذة ، ويبيّن جارودى أن كلا الأسطورتين لا يُعبّران عن اللامتاهى الكيفى الإنسان وإنما هى عملية تزييف لوقائع التاريخ لتمجيد الذات على حساب الآخر.

ولم يُطبق جارودى رؤيته للأسطورة على الحضارة الغربية وحسب ، وإنما طبقها كذلك على الظاهرة الصهيونية . وفى مجموعة من الدراسات

أولها كتاب ملف إسرائيل : الصهيونية السياسية ، وثانيها كتاب فلسطين أرض الرسالات الإلهية ، وأخيراً كتاب الأساطير المؤسسة لإسرائيل (الصادر عام ١٩٩٦م وتمت ترجمته للعربية في العام نفسه) . ورغم أن هذه الدراسات متفرقة لكل منها إسهامها المهم ، إلا أنها تُصدّر عن الرؤية نفسها وتستخدم المنهج نفسه ، ولذا سنعتبرها وحدة متكاملة (وإن كنا سنركز على الأساطير المؤسسة لإسرائيل) .

وقد قام جارودي بتحديد نقطة انطلاقه ومنهجه ، كما حدد بصراحة بالغة سياق نقده للصهيونية ولمراجعته لبعض المسلمات الخاصة بالإدارة النازية لليهود .

١ - بين جارودي أن اليهودية عقيدة دينية أما الصهيونية فعقيدة سياسية ، وأن إسرائيل التوراتية رؤية دينية أما إسرائيل الصهيونية فحقيقة مادية . وطريقة دراسة الواحد تختلف عن طريقة دراسة الآخر ، وما يقوم به الواحد لا يمكن أن يُنسب للآخر . فمياصة إسرائيل الداخلية المبنية على الإرهاب العرقي وسياستها الخارجية المبنية على العدوان التوسع ، ليست بالضرورة أموراً نابعة من العقيدة اليهودية ولا تتمتع بأية قداسة .

٢ - يؤكد جارودي بما لا يقبل الشك تمييزه بين التوراة والتفسير الصهيوني لها ، «فتقد التفسير الصهيوني للتوراة والأسفار التاريخية (وبخاصة سفر يشوع ، وسفر صموئيل ، ومفر الملوك) ، لا يحس بأية حال من الأحوال التوراة وما جاء فيها من معتقدات دينية ..

فتضحجة سيدنا إبراهيم هي المثال الخالد على تفوق الإنسان على أخلاقياته العابرة وعلى منطقته الضعيف باسم القيم المطلقة . كما أن «الخروج» سيظل هو رمز التخلص من كل أنواع العبودية ، وعلى نداء الرب الذى لا يُقاوم نحو الحرية» . إن هذا الجانب من العقيدة اليهودية والتوراة هو تعبير عن اللامتناهى فى الإنسان ، وعن المقلّس ، ولذا فجارودى يحتفى به ويضمه إلى الدلائل العديدة على عظمة الإنسان وتطلعه إلى الإله ؛ إنه تعبير عن الأسطورى بالمعنى الإيجابى .

٣ - يؤكد جارودى التزامه بالقيم الأخلاقية المطلقة ، فليس الغرض من كتابه (كما يقول) «القيام بعملية حسابية جنائزية» لعدد ضحايا الإبادة النازية لليهود أو «مسك دفاتر حسابية مؤلمة ومفحمة» ، فهذا يشكل سقوطاً فى العقلية التكنولوجية والعقلانية المادية ، أى فى «اللامتناهى الكمي» فقتل إنسان برئ واحد ، سواء كان يهودياً أم لم يكن ، هو جريمة ضد الإنسانية ، ولا مجال للنقاش فى هذا .

٤ - يهاجم جارودى وبلا هوادة العنصرية الموجهة ضد اليهود ومحاولة الخط من قدرهم والدعوة إلى الحق عليهم واضطهادهم ، ويخص كتاب بروتوكولات حكماء صهيون بالذكر فيشير إلى أنصندد به فى كتابه فلسطين أرض الرسالات الإلهية باعتباره وثيقة مزيفة (وأسطورة قمعية) ويعبر عن أسفه لاستخدامه فى بعض البلدان العربية .

٥ - يؤكد جارودي ضرورة الدراسة الهادئة للقضية ؛ ولذا فقد كان حريصاً كل الحرص على عدم تقلب أي أطروحة إلا وهي معززة بالمصادر .

٦ - يُبين جارودي أنه لم يأت بالحقيقة اليقينية النهائية فكتابه لا يزال «عرضاً مؤقتاً» ، وهو «ككل تاريخ انتقادي وككل علم من العلوم ، قابل للمراجعة والتنقيح طبقاً لاكتشاف عناصر جديدة .

ما يرفضه جارودي هو «القراءة الصهيونية القبلية والقومية للنصوص اليهودية المقدسة ، باختزالها الفكرة الهائلة لعهد الله مع الإنسان ، ومع كل الناس ، ووجوده في داخلنا جميعاً ، لاستنتاج أشر فكرة في تاريخ الإنسانية ألا وهي فكرة «الشعب المختار» الذي اختاره رب متحيز وجزئي (ومن ثم صنم) ، ولذلك للتبرير المسبق لجميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح . كما لو كان تاريخ العبرانيين أو التاريخ المقدس هو التاريخ الوحيد في العالم .

إن الهدف من الكتاب ليس أكاديمياً بارداً وإنما هي قضية حياة ، «قضية الاستغلال السياسي من دولة لم يكن لها وجود عندما اقترحت الجرائم (النازية) ، وقضية المبالغة في أرقام الضحايا بصورة تعسفية لمحاولة إثبات أن معاناة البعض لا وجه لتشبهها بمعاناة الآخرين وإضفاء القداسة عليها ، وهي محاولة لصرف النظر عن مذابح أشد قسوة .

وأكبر المستفيدين من هذا هم الصهاينة ، الذين أظهروا أنفسهم بمثابة الضحايا دون سواهم وأنشئوا إثر ذلك دولة إسرائيل ، ووضعوها فوق كل قانون دولي .

إقامة العدل في الأرض :

هذه هي القضية ، وهذا هو وحده الجدير بالدراسة ، ويؤكد جارودي أنه لم يدر بخلفه قط فكرة تدمير دولة إسرائيل ، فكل ما يريده هو ببساطة أن يُبطل عنها صفة القداسة ، وأن يدعى إلى تجاوز النسبية الداروينية التي تكرر «علاقات الغاب» أي الأمر الواقع الذي نشأ من خلال «تطلقات المدافع» . إن ما يطالب به هو إحقاق الحق وإقامة العدل في الأرض .

ويمكن إنجاز هذا المطلب الإنساني المشروع ، في حالة الشرق الأوسط عن طريق تطبيق القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة ، أي المجتمع الدولي ، «وهي القرارات التي تستنكر وتمنع التوغل داخل حدود البلدان المحلورة والاستيلاء على مياهاها ؛ والتي تنص على ضرورة الجلاء عن الأراضي المحتلة» . ويؤكد جارودي أن الاستمرار في إقامة المستوطنات داخل المناطق المحتلة بطريقة غير شرعية ، هو احتلال يجعل من المستحيل إحلال سلام حقيقي وتعايش سلمي ودائم للشعبين المتساويين والمستقلين ، وهو السلام الذي يرمز إلى الاحترام المتبادل ، دون ادعاء بملكية القدس ، أرض اللقاء بين الديانات الثلاث .

الأمر واضح لا ليس فيه ، ونقطة الانطلاق نقدية ، تفكيكية
تركيبية ، أخلاقية إنسانية ، ترفض العنصرية في كل أشكالها سواء
كان موجهة ضد اليهود أو الفلسطينيين ، فلا يوجد شعب مختار
وشعوب منبوذة ، ومن وجهة نظر إسلامية لم يختر الله شعباً بعينه وإنما
اختار كائناً بعينه وكرمه وهو الإنسان وحجة الوداع ، آخر خطب
الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليست موجهة للمسلمين فقط
وإنما لكل الناس ، ويشير جارودي في وعد الإسلام إلى قول الله تعالى
(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . سورة الحجرات الآية ١٣ .

هذا هو الإطار العام وانطلاقاً منه يحاول جارودي تحطيم بعض
الأساطير المغلقة التي تستند إليها الدولة الصهيونية :

١ - أسطورة الوعد :

تستمد أولى الأساطير ، أسطورة «الوعد» ، أصولها من الوعد الإلهي
لإبراهيم في سفر التكوين . ومعظم المفسرين أخذوا الوعد المعطى للآباء
بمعناه الكلاسيكي باعتباره إضفاءً للشريعة بعد الأحداث على
الغزو الإسرائيلي لفلسطين ، أو امتداداً للسيادة الإسرائيلية في عهد
دواد .

٢ - أسطورة الشعب المختار والنقاء العرقي :

تذهب الأسطورة الصهيونية إلى أن اليهود شعب مختار ، لم يفتح
على الآخرين فاحتفظ بنقائه العرقي أو الإثني . ويُكذَّب التاريخ والواقع
هذه الدعوى تماماً ، فالعبرانيون منذ استقرارهم في كنعان قد اختلطوا

عرقياً وثقافياً بالشعوب المحلية (بشهادة الكتاب المقدس ذاته) ، وغير
التاريخ اختلط أعضاء الجماعات اليهودية في العالم من خلال الزواج مع
بقية الشعوب ، كما تم المزج كذلك عن طريق التحول الديني
(التهود) .

وقد ولدت هذه الأساطير المغلقة سمة تعتبر من أميز سمات المستوطن
الصهيوني وهي سمة «إبادة الآخر» . فواقع التطهير العرقي الذي يُمارس
بشكل منتظم في دولة إسرائيل اليوم ، ينبع من مبدأ النقاء العرقي الذي
يمنع امتزاج أعضاء الشعب المختار بالشعوب الأخرى ، سواء من الناحية
العرقية أم الناحية الثقافية . ومبدأ التوسع والاستيطان هو ثمرة فكرة
أسطورة الوعد . والترانسفير (أى طرد الفلسطينيين من وطنهم) هو
النتيجة الحتمية للمنطق الداخلي للصهيونية . ثم ينتقل جارودي بعد ذلك
إلى الأساطير الصهيونية الخاصة بالإبادة .

وبعد ..

هذه جولة قصيرة للغاية في عقول بعض المفكرين (اليهود وغير
اليهود) تكشفنا من خلالها موقفهم من اليهود والمسألة اليهودية
والصهيونية.

وموضوع اليهود كما بين هذا الكتاب موضوع مركب
وخطافي، ولكن ما يهمنا نحن العرب، أن ما قد يكون قد حاق باليهود
من ظلم وتعسف في العالم العربي لا يعطيهم أى حق في فلسطين ،

واستخدام الدياجات المختلفة في تبرير الاستيلاء على فلسطين هو غش وتدليس ، وأصحاب الحق ، أصحاب الأرض لم يمتنعوا كما كان مقدراً لهم. وهم لا يزالون يطالبون بحقوقهم وأرضهم ويرفضون التفريط فيها. والصهيونية - رغم كل الدياجات اليهودية وغير اليهودية هي حركة استعمارية استيطانية، استولت على أرض الفلسطينيين بالقوة ، وبدون وجه حق، ولذا فالحرب ضد الصهيونية ، هي حرب قد تكون قومية أو دينية ولكنها تظل في صميمها حرباً إنسانية لاستعادة الحقوق الضائعة.

ولاشك أن القضية تحتاج لمزيد من الدراسة المفصلة ولكن حيز هذا الكتاب قد فرض حدوده علينا، ولعله قد يكون لنا فرصة في المستقبل نتناول ما لم نتناوله في هذا الكتاب (إشكالية نفع اليهود ، وموقف الكُتّاب اليهود (الصهاينة) مثل بياليك وتشرنخوفسكى من القضايا التي تناولها هذا الكتاب. والله أعلم .

اشترك فى سلسلة اقرا تضمن وصولها إليك بانتظام
الاشترك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدّد قيمة الاشتراكات مقدّمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلّة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة